

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٤ - سُورَةُ الْقَمَرِ

وتسمى سورة (أُقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) وهي مكية . وآيها خمس وخمسون .
قال ابن كثير : ورد في حديث أبي واقد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ به (قاف)
(وَأُقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) في الأضحى والفطر . وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار ، لاشتمالها على
ذكر الوعد والوعيد ، وبدء الخلق وإعادته ، والتوحيد ، وإثبات النبوات ، وغير ذلك من
المقاصد العظيمة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ)

« أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ » أى دنت الساعة التى تقوم فيها القيامة . كما قال ^(١) (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَمِعِ لَهُ) وقال ^(٢) (أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ) . قال ابن جرير ^(٣) : وهذا من الله تعالى إنذار لعباده بدنو القيامة ، وقرب فناء الدنيا ، وأمرهم بالاستعداد لأحوال القيامة ، قبل هجومها عليهم ، وهم عنها فى غفلة ساهون . « وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ)

« وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ » قال ابن جرير ^(٣) : كان ذلك ، فيما ذكر ، على عهد رسول الله ﷺ وهو بمكة ، قبل هجرته إلى المدينة . وذلك أن كفار أهل مكة سألوه آية ، فأراههم ﷺ انشقاق القمر حجة على صدق قوله ، وحقيقة نبوته . فلما أراهم أعرضوا وكذبوا ، وقالوا هذا سحر مستمر ، سحراً نأ محمد . ثم روى ذلك عن أنس وابن مسعود وابن عباس ، وغير واحد من التابعين .

وقال القاضي عياض فى (الشفا) أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضى ، وإعراض الكفرة عن آياته . وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه ، ثم سرد الآثار فى ذلك .

(١) [١٦ / النحل / ١] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ١] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٨٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وزعم ابن كثير أن أحاديثه متواترة ، إلا أن الشهاب نقل عن الإمام الخطابي أن معجزاته عليه السلام ، غير القرآن ، لم تتواتر . والحكمة فيه أنها لو تواترت كانت عامة ، والمعجزة إذا عمت أهلك الله من كذبها ، كما جرت به العادة الإلهية ، والنبي عليه السلام بعث رحمة ، وأمن الله أمته من عذاب الاستئصال .

ثم قال : وسبب تعرضهم للتواتر طعن بعض الملاحدة بأن القمر يشاهده كل أحد ، فلو انقسم قطعتين تواتر وشاع في جميع الناس ، ولم يخف على أحد . والطبائع حريصة على إشاعة ما لم يعد مثله ، ولا أغرب من هذا . مع أن الملازمة غير لازمة ، لأنه في الليل ، وزمان الغفلة ، ولا يلزم امتداده ، ولا أن يرى إذ ذاك في جميع الآفاق ، لاختلاف المطالع . انتهى . وقد ذكر ابن قتيبة في (تأويل مختلف الحديث) أن الذي طعن في تلك الآثار المروية عن ابن مسعود هو النظام ، إلا أنه لم ينقل تأويله للآية على رأيه ، ولعله هو القول الثاني الذي حكاه الزخشري والبيضاوي ، ورواه أبو السعود عن عثمان بن عطاء عن أبيه أن المعنى : وسينشق القمر ، يعني يوم القيامة إذا انكسرت النجوم وانتثرت . والمراد بالآية إما القرآن أو ما يقترحونه لو أجيبوا إلى طلبه .

ومعنى (مُسْتَمِرٌّ) دائم مطرد ، أو محكم قوى ، من (مررت الجبل) إذا أحكمت فقله . أو ما زاهب لا يبقى ، تعليلاً لأنفسهم بالأمانى الفارغة . أو منفور عنه لشدة مرارته مجازاً . وجملة (وإن روا) مستأنفة أو حالية .

قال الشهاب : ولو كانت هذه الجملة حالية ، والمعنى . أن الساعة اقتربت ، وانشقاق القمر فيها دنا زمانه ، وظهرت آثاره ، والحال أنهم مصررون على العناد - كان منتظماً أتم انتظام ، ولا ضير فيه سوى مخالفته للمنقول عن السلف في تفسيرها ، فتأمل . انتهى .

أقول : ولى ههنا كلمة لا بد من التنبيه عليها ، وهي أن الرمي بالإلحاد لمفسر حديث غير مجمع على تواتره ، جنسية كبرى ، وزلة عظيمة . فإن باب التفكير والتضليل ، ليس بالأمر

القليل . ولأجله صنف حجة الإسلام الغزالي كتابه (فيصل التفرقة) ودمغ بحججه أولئك المتعصبين الذين سهل عليهم الرى لمن خالفهم بالزندقة . ولعمر الحق إن هذا مما فرق الكلمة ، ونقر حملة العلم عن تعرف المشارب والآراء ، حتى أصبح باب التوسع فى العلم مرتجأ ، ومحيطه بعد مده منحسراً ، إذ هجرت كتب الفرق الأخرى بل أحرقت ، وأهين من يتأثر بها ، ورمى بالابتداع أو التزندق ، كما يمر كثير من مثل هذا بمطالع كتب التاريخ وطبقات الرجال ، فلا جرم نسبت الأقوال الباقية ، وعدت من الشاذ غير المقبول . وإذا ألصق اسم الإلحاد بقاتلها ، فاذا يكون حالها ؟ وهذا ، كما لا يخفاك ، حيف على قواعد العلم ، وغل للأفكار . نعم ! تفلت منهم علم الأصول ، فلم تزل الأقوال الغريبة تتراءى على صفحاته ، وإن كان مما يغمز كثير منها ، إلا أنها سارت تلج آذانهم ، ويحتج بها عليهم . وقد تنبه كثير من المحققين لما ذكرناه ، وأشاروا له فى مواضع ، فقررروا فى كتب العقائد أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة .

وقال العلامة الفناى فى (فصول البدائع) : ولا يضلل جاحد الآحاد .

وقال الإمام ابن تيمية : الصواب أن من رد الخبر الصحيح ، كما كانت الصحابة ترده ، لاعتقاد غلط الناقل أو كذبه ، لاعتقاد الراد أن الدليل قد دل على أن الرسول لا يقول هذا ، فإن هذا لا يكفر ولا يفسق ، وإن لم يكن اعتقاده مطابقاً . فقد رد غير واحد من الصحابة غير واحد من الأخبار التى هى صحيحة عند أهل الحديث . انتهى .

وذكر الغزالي فى (الإحياء) فى كتاب آداب تلاوة القرآن فى الباب الثالث فى أعمال الباطن فى التلاوة ؛ أن من أركانها التخلّى عن موانع الفهم . قال : فإن أكثر الناس منعوا عن فهم معانى القرآن لأسباب وحجب أسد لها الشيطان على قلوبهم ، فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن . وحجب الفهم أربعة . إلى أن قال :

وثانيها - أن يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد ، وجد عليه ، وثبت فى نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة . فهذا شخص قيده معتقده

عن أن يجاوزه ، فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتمده ، فصار نظره موقوفاً على مسموعه ، فإن لمع برق على بعد وبداله معنى من المعانى التى تبين مسموعه ، حمل عليه شيطان التقليد حملة ، وقال : كيف يخطر هذا ببالك ، وهو خلاف معتقد آبائك ؟ فيرى أن ذلك غرور الشيطان فيتباعد منه ، ويحترز عن مثله . ثم قال :

رابعها - أن يكون قرأ تفسيراً ظاهراً ، واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرها ، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأى ، وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار ، فهذا أيضاً من الحجب العظيمة . ثم قال :

وسنبين معنى التفسير بالرأى ، وأن ذلك لا يناقض قول على رضي الله عنه : إلا أن يؤتى الله عبداً فهماً فى القرآن . وأنه لو كان المعنى هو الظاهر المنقول ، لما اختلف الناس فيه .

ثم ذكر بعد ، عليه الرحمة ، أن النهى عن التفسير بالرأى ينزل على أحد وجهين : أحدهما - أن يكون له فى الشئ رأى ، وإليه ميل من طبعه وهواه ، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ، ليحتج على تصحيح غرضه ، كالحجج على تصحيح بدعة بتأويل يخترعه تلبساً على خصمه ، وكالجاهل المتعجم يتأول ما شاء هواه .

وثانيهما - أن يتسارع إلى التأويل بظاهر العربية من غير استظهار بالسمع والنقل فيما يتعلق بغرائب التنزيل . انتهى .

ويأتى مثل البحث فى كثير من المواضع التى فسر بها بعض السلف بشئ ، أوردوا فيها ما أنكره غيره لما قام لديه . ولا ملام فى معترك الأفهام - وبالله التوفيق - .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَكَذَّبُواْ وَاتَّبَعُواْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ)

« وَكَذَّبُواْ » أى بآيات الله بعد ما اتهم حقيقة « وَاتَّبَعُواْ أَهْوَاءَهُمْ » أى ما زين لهم من دفع الحق مما وجدوا عليه آباءهم « وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ » أى كل أمر لا بد أن يصير

إلى غاية يستقر عليها . تعريض بأن أمر الرسول لا بد أن يستقر إلى غاية، هي الظهور والنصرة؛ وأمر مكذبيه إلى الخذلان والشقاوة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ)

[٥] (حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ)

« وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ » أى عن القرون الخالية ، والحقائق الكونية ، مما يستحيل أن يأتي به أى غيره صلوات الله عاياه « مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ » أى مرتدع عماهم مقيمون عليه من التكذيب والغفلة واللهو « حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ » أى بلغت غايتها من الأحكام والتنزه عن الخلل ، ومن الاشتغال على البراهين القاطعة والحجج الساطعة . وهو بدل من (ما) أو خبر محذوف ، أى هو حكمة بالغة « فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ » جمع نذير . و (ما) نافية ، أو استفهامية . أى : أى غناء تغنى عن قوم آثروا الضلالة على الهدى ، فأعرضوا عنه ، وكذبوا به . وجوز أن تكون (حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ) جملة مستأنفة للتعجب من حالهم ، مع ما جاءهم مما يقود إلى الإيمان بآدى بدء . وهو ما يفهم من تأويل ابن كثير . وعبارته : (حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ) أى فى هدايته تعالى لمن هداه ، وإضلاله لمن أضله (فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ) يعنى أى شئ تغنى النذر عن كتب الله عليه الشقاوة ، وختم على قلبه . فمن ذا الذى يهديه من بعد الله ؟ وهذه الآية كقوله تعالى^(١) (وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ) وكذا قوله تعالى^(٢) (وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) .

(٢) [١٠ / يونس / ١٠١] .

(١) [١٦ / النحل / ٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكُرٍ)

[٧] (خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ)

[٨] (مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ، يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسِرٍ)

« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ » أى اصفح عن أذاهم ، وانتظر ما يأتيهم من الوعيد الشديد ، كما قال :

« يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ » أى داعى الله إلى موقف القيامة ، وهو ملك . أو الدعاء تمثيل للإعادة كالأمر في قوله (كُنْ فَيَكُونُ) تمثيل للإبداء ، والداعى هو الله تعالى « إِلَى شَيْءٍ نَّكُرٍ » أى فظيع تنكره النفوس ، وهو موقف الحساب والجزاء والبلاء « خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ » أى من الدل والصغار « يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ » أى قبورهم « كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ » أى فى السكثرة والتموج والانتشار . والجراد مثل فى السكثرة « مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ » أى مسرعين . مادى أعناقهم إليه . « يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسِرٍ » أى لشدة أهواله و (يَوْمَ يَدْعُ) ظرف لـ (يَقُولُ) وقيل : بمضمر ، وقيل : بـ (يَخْرُجُونَ) والأول أظهر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ)

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ » أى زجر

عن الإنذار والتبليغ بشدة وقساوة ، كما يدل عليه صيغة (افتعل) .

قال الناصر : وليس قوله (فَكَذَّبُوا) الثانى تكراراً ، لأن الأول مطلق ، والثانى مقيد .

وهو كقوله فى السورة ^(١) (فَمَعَاطَى فَمَقَرَّ) فإن معاطيه هو نفس عقره ، ولكن ذكره من جهة عمومها ، ثم من ناحية خصوصه إسهاباً ، وهو بمثابة ذكره مرتين . وجواب آخر هنا ،

وهو أن المكذب أولاً محذوف ، دل عليه ذكر نوح ، فكأنه قال : كذبت قوم نوح نوحاً ، ثم جاء بتسكذيبهم ثانياً مضافاً إلى قوله (عَبْدَنَا) فوصف نوحاً بخصوص العبودية . وأضافه إليه إضافة تشريف . قالتسكذيب الخبر عنه ثانياً ، أبشع عليهم من المذكور أولاً ، لتلك اللمحة . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (فَدَعَا رَبُّهُوَ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ)

« فَدَعَا رَبُّهُوَ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ » أى غلبنى قومى تمرداً وعتوّاً ، فلم يسمعوا منى . واستحكم اليأس منهم ، فانتقم منهم بعذاب ترسله عليهم . ثم أشار إلى استجابته تعالى دعاءه : بالطوفان الذى هلكوا فيه ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ)

[١٢] (وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ)

[١٣] (وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ)

[١٤] (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ)

[١٥] (وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

[١٦] (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ)

« فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ » أى مندفق . وفيه استعارة تمثيلية ، بتشبيه تدفق المطر من السحاب بانصباب أنهار انفتحت لها أبواب السماء ، وشق لها أديم الخضراء . « وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا » أى وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تنفجر . « فَالْتَقَى الْمَاءُ »

أى ماء السماء وماء الأرض « عَلَىٰ أَمْرٍ قَدَرٍ » أى على حال قدره الله وقضاه ، وهو هلاك قوم نوح . « وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْحِ وَدُسُرٍ » يعنى السفينة . أقيمت صفاتها مقامها ، لتأديتها مؤداها . وهو من بديع الكلام - كما بسطه في (الكشاف) - .

(وَدُسُرٍ) جمع دسار بكسر الدال ، أو دسُر كسقف وسقف ، وهى أضلاعها ، أو حبالها التى تشد فيها ، أو مساميرها .

« تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا » أى بمرأى منا . كناية عن حفظها بحفظه تعالى وعنايته . « جَزَاءَ لِمَن كَانَ كُفِرَ » أى كفر به ، وهو الله تعالى ، أو نوح وما جاء به ، فهو من (الكفر) ضد الإيمان . أو هو نوح عليه السلام لأنه نعمة كفروها ، فهو متعبد بنفسه ، استعير لفوح النعمة بطريق الكناية ، ونسب الكفران تخييلاً أو حقيقة . « وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا » أى قصة نوح « آيَةً » أى جعلناها عبرة يُعتبر بها . « فَهَلْ مِنْ مُّدَّكِرٍ » ؟ أى معتبر ومتعظ . وأصله (مذكرة) . « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ » أى عذابى لهؤلاء الكفرة ، قوم نوح ، وإنذاراتى بما أحللت بهم ، ليحذر أمثالهم وينتهوا عما يقتربونه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّدَّكِرٍ)

« وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ » أى سهّلناه للادّكار والاعتاظ ، لكثرة ما ضرب فيه من الأمثال الكافية الشافية « فَهَلْ مِنْ مُّدَّكِرٍ ؟ » أى فيعتبر بما فيه ، ويثوب إلى رشده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ)

[١٩] (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ)

[٢٠] (تَنَزَّعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ)

[٢١] (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ)

[٢٢] (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ)

« كَذَّبَتْ عَادٌ » أى نبيهم هوداً عليه السلام ، بمنزل ما كذبت به قوم نوح « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَرًا » أى شديدة الهبوب ، لها صرير ، أو باردة ، « فِي يَوْمٍ نَحْسٍ » أى شر وشؤم عليهم « مُسْتَمِرٍّ » أى استمر عليهم ودام حتى أهلكهم ، أو شديد المראה لعظم بلائه . « تَنَزَّعُ النَّاسَ » أى تقلعهم عن أماكنهم . « كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ » أى أصول نخل منقطع عن مغارسه . وأصل (مُنْقَعِرٍ) ما أخرج من القمر . « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي » كرّره للتوبيخ وللتنبيه على فرط عتوهم . أى فكيف كان عذابى لقومه ، وإنذارى لهم على لسانه ؟ « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ » ؟ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ)

[٢٤] (فَقَالُوا أَبَشَرًا مِمَّنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُوَ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)

[٢٥] (أَأَلْقَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ)

[٢٦] (سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُّ)

[٢٧] (إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَأَرْتَبْنَهُمْ وَأَصْطَبِرُ)

[٢٨] (وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ، كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ)

[٢٩] (فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ)

[٣٠] (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي)

[٣١] (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ)

[٣٢] (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ)

« كَذَبْتَ تَمُودُ بِالْأُنْذُرِ » أى بما أنذرهم به نبيهم صالح عليه السلام . « فَقَالُوا أَأَبْشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ وَ إِنَّا إِذَا لَفِئَ ضَلَلٍ وَسُعُرٍ » أى جنون ، أو عناء . فهو اسم مفرد . وقيل : جمع سمير ، كأنهم عكسوا عليه ، فرتبوا على اتباعهم إياه مراتبه على اتباعهم له .

قال الزمخشري قالوا : (أَبْشَرًا) إنكاراً لأن يتبعوا مثلهم فى الجنسية ، وطلبوا أن يكون من جنس أعلى من جنس البشر ، وهم الملائكة . وقالوا (مِنَّا) لأنه إذا كان منهم كانت المائلة أقوى . وقالوا (وَاحِدًا) إنكاراً لأن تتبع الأمة رجلاً واحداً ، أو أرادوا واحداً من أفتائهم ليس بأشرفهم وأفضلهم . ويدل عليه قولهم « أَلْقَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا » يعنون : الوحي والنبوة . أى وفينا من هو أحق بها على زعمهم ، لكونه أعز مالا ونقراً « بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشِرُّ » أى متكبر ، حمله كبره على استبعادنا له . « سَيَعْلَمُونَ غَدًا » أى عند نزول العذاب بهم ، أو يوم القيامة « مَنَ الْكَذَابُ الْأَشِرُّ » أى المتكبر عن الحق ، البطر له « إِنَّا مُرْسِلُوا النَّافَةِ فِتْنَةً لَهُمْ » أى آية وحجة لصالح على قومه امتحاناً لهم وابتلاء « فَأَرْيَقِبُهُمْ » أى انتظرهم وتبصر ما هم صانعون بها « وَأَصْطَبِرُ » أى على دعوتهم « وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ » أى الذى يردونه لشرب مواشيهم « قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ » أى مقسوم بينهم ، لها شرب يوم ، ولهم شرب يوم « كُلُّ شَرِبٍ مُحْتَضَرٌ » أى يحضره صاحبه فى نوبته و (الشرب) النصيب من الماء .

ثم أشار تعالى إلى عتوهم عن أمر ربهم بقوله « فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى » فتناول النافاة بيده « فَمَعَرَّ » أى فمقرها وقتلها « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ » أى كالشجر اليابس المتكسر ، الذى يتخذ

من يعمل الحظيرة للغنم ونحوها . أو كالخشيش اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته في الشتاء . وقرئ بفتح الظاء ، اسم مكان . أى كهشيم الحظيرة ، أو الشجر المتخذ لها . وهو تشبيه لإهلاكمهم وإفنائهم ، وأنهم بادوا عن آخرهم ، لم تبق منهم باقية ، وخدوا وهمدوا ، كما يهدم ويبس الزرع والنبات بعد خضرة ورقه ، وحسن نباته .

قال ابن زيد : كانت العرب يجعلون حظاراً على الإبل والمواشى من يبس الشوك . وعن سفیان: الهشيم ، إذا ضربت الحظيرة بالعصا، تهشم ذاك الورق فيسقط ، والعرب تسمى كل شيء كان رطباً فيبس ، هشياً « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلَّذِي كُتِبَ عَلَيْهِ مِنْهُ مُدَّ كَرٍ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذْرِ)

[٣٤] (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ ، نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ)

[٣٥] (نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ، كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ)

[٣٦] (وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذْرِ)

[٣٧] (وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ)

[٣٨] (وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ)

[٣٩] (فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ)

[٤٠] (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلَّذِي كُتِبَ عَلَيْهِ مِنْهُ مُدَّ كَرٍ)

« كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذْرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا » أى ملكاً يرميهم بالحصباء والحجارة . أورياً تحصبهم بالحجارة ، أى ترميهم « إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ » أى

في سحر . أو (الباء) للملابسة ، أو المصاحبة . وذلك أنه تعالى أوحى إليهم أن يخرجوا من آخر الليل ، فنجوا مما أصاب قومهم . ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ، ولا رجل واحد ، حتى ولا امرأته ، وقد أصابها ما أصابهم . وخرج نبي الله لوط عليه السلام وبنات له ، من بين أظهرهم سالمين لم يحسبهم سوء « نِعْمَةٌ مِّنْ عِنْدِنَا » أى إنعاماً منا ، وهو علة لـ (نجينا) « كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ » أى فأطاع ربه ، وانتهى إلى أمره ونهيهِ . و (الشكر) صرف العبد جميع ما أنعم عليه ، إلى ما خلق لأجله « وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ » أى لوط « بَطْشَتْنَا » أى أخذتنا بالعذاب « فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ » أى بإبذاراته ، تكذيباً له « وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ » أى طابوه بإتيان الفاحشة معهم ، وهم الملائكة الذين وردوا عليه في صورة شباب مُرَدِّ حسان ، محنة من الله بهم ، فأضافهم لوط عليه السلام ، وبعثت امرأته العجوز السوء إلى قومها تعلمهم بأضيافه عليه السلام ، فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان ، فتلقاهم يناشدهم الله أن لا ينجزوه في ضيفه ، فأبوا عليه ، وجاءوا ليدخلوا عليه ، فأعشى الله أبصارهم ، فلم يروهم ، كما قال « فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي * وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِيرٌ » أى يدوم بهم إلى النار . « فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّدَّكِرٍ » قال الزمخشري : فإن قلت : ما فائدة تكرير قوله (فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي) (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ...) الخ ؟ قلت : فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين إذ كلاً وَاِتَعَاظاً ، وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظاً ، إذا سمعوا الحث على ذلك ، والبعث عليه ، وأن يقرع لهم العصا مرات ، ويقعق لهم الشن تارات ، لئلا يغلبهم السهو ، ولا تستولى عليهم الغفلة . وهكذا حكم التكرير كقوله^(١) (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) عند كل نعمة عدها في سورة (الرحمن) . وقوله^(٢) (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) عند كل آية أوردتها

(١) [٥٥ / الرحمن / ١٣] . (٢) [٧٧ / المرسلات / ١٥] .

سورة (والمرسلات) . وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها ، لتكون العبر حاضرة للقلوب ، مصورة للأذهان ، مذكورة غير منسية في كل أوان . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ)

[٤٢] (كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ)

« وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ » يعنى موسى وهرون ، وجمعهما للتعظيم ، أو هو جمع نذير بمعنى الإنذار « كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا » يعنى الآيات التسع ، أو الأدلة والحجج التى أتتهم ناطقة بوحدانيته تعالى . « فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ » أى عاقبناهم عقوبة شديدة لا يغالب « مُّقْتَدِرٍ » أى عظيم القدرة لا يعجزه شئ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلَائِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ)

[٤٤] (أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ)

« أَكْفَارُكُمْ » يا معشر قريش « خَيْرٌ مِّنْ أَوْلَائِكُمْ » أى الكفار المعدودين الذين حلت النعمة حتى يأمنوا جانبها « أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ » أى براءة من عقابه تعالى ، وأمان منه ، مع أنكم على شاكلة من مضى نبؤهم « أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ » أى ممتنع لا يرام . أو منتصر ممن أراد حربنا ، وتفريق كلتنا . أو متناصر ، ينصر بعضهم بعضاً ، فالافتعال بمعنى التفاعل ، كالاختصاص بمعنى التخاصم . وإفراد (مُّنتَصِرٌ) مراعاة لللفظ (جَمِيعٌ) لخفة الإفراد ، ولرعاية الفاصلة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ)

[٤٦] (بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَىٰ وَأَمْرٌ)

«سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ» يعنى جمع كفار قريش «وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ» أى يولّون أديبارهم المؤمنين بالله ، عند انهزامهم . وإفراد (الدبر) لإرادة الجنس ، أو رعاية الفواصل ، ومشاكله قرأته . وقد وقع ذلك يوم بدر . وهو من دلائل النبوة ، لأن الآية مكية ، ففيها إخبار عن الغيب ، وهو من معجزات القرآن . «بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ» قال ابن جرير^(١) : ما الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون من أنهم لا يبعثون بعد مماتهم ، بل الساعة موعدهم للبعث والعقاب . «وَالسَّاعَةُ أَذَىٰ وَأَمْرٌ» أى أعظم داهية ، وهى الأمر المنكر الذى لا يهتدى لدوائه . وأمر مذاقاً ، أو أشد عليهم من الهزيمة التى سبهمونها ، إذا التقوا مع المؤمنين للقتال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)

[٤٨] (يَوْمَ يُسْجَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ)

«إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ» أى عن الحق فى الدنيا «وَسُعُرٍ» أى نيران فى الآخرة . وقال القاشانى : أى فى ضلال عن طريق الحق ، لعمى قلوبهم بظلمة صفات نفوسهم . و (سُعُرٍ) أى جنون ووله ، لاحتجاب عقولهم عن نور الحق بشوائب الوهم ، وحيرتها فى الباطل .

«يَوْمَ يُسْجَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ» أى يجرون عليها . «ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ» أى حرها والمها . والاستعارة فى المس تحقيقية . أوفى (سَقَرٍ) مكنية ، وفى (المس) تخيلية .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أو المس حجاز مرسل بملاقة السبيبة للألم . واستعارة الذوق مشهورة ، واستعمال الذوق في المصائب بمنزلة الحقيقة . و (سَقَرَ) من أسماء جهنم - أعاذنا الله منها - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

« إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » أى بمقدار استوفى فيه مقتضى الحكمة ، وترتب الأسباب على مسبباتها . ومنه خلق دار العذاب ، لما كسبت الأيدي ، وإذاقة ألمها جزاء الزيف عن الهدى . وهذه الآية كآية^(١) (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرُهُ وَتَقْدِيرًا) ، وآية^(٢) (سَمِيعَ أَسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) أى قَدَّرَ قَدْرًا ، وهدى الخلائق إليه . ولا مانع أن تكون هذه الآية وما بعدها إلفاتاً لعظمته تعالى ، وكبير قدرته ، وأن من كانت له تلك النعوت المثل للجدير أن يُعبد وحده ، ويُرهَب بأسه ، ويُتَّقَى بطشه ، لاسيما وقد صدع الداعي بإنذاره ، ومن أنذر فقد أعذر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ)

« وَمَا أَمْرُنَا » أى الذى به الإيجاد « إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » أى كلمة واحدة يكون بها كل شيء ، بمقتضى استعداده ، كلمح بالبصر في السرعة .

قال القاشانى : (إِلَّا وَاحِدَةٌ) أى تعلق المشيئة الأزلية الموجبة لوجود كل شيء في زمان معين ، على وجه معلوم ، ثابت في لوح القدرة ، المسمى في الشرع بـ (كُنْ) ، فيجب وجوده في ذلك الزمان ، على ذلك الوجه دفعة . انتهى .

وقيل : معنى الآية ، معنى قوله تعالى^(٣) (وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ) .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢] . (٢) [٨٧ / الأعلى / ١-٣] . (٣) [١٦ / النحل / ٧٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّرِكٍ)

« وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ » أى أشباهكم فى الكفر من الأمم السالفة .
قال الشهاب : أصل معنى (الأشياء) جمع شيعة ، وهم من يتقوى بهم المرء من الأنباغ .
ولما كانوا فى الغالب من جنس واحد ، أريد به ما ذكر ، إما باستعماله فى لازمه ، أو بطريق الاستعارة .

« فَهَلْ مِنْ مُدَّرِكٍ » أى ممتعظ بذلك ينزجر به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ)

« وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ » أى الكتب التى أحصتها الحفظة عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ)

« وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ » أى من الأعمال « مُسْتَطَرٌّ » أى مسطور لا يحصى ولا ينسى ،
كما قال تعالى ^(١) (وَيَقُولُونَ يَتَوَلَّوْنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَٰضِرًا ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) وقوله سبحانه ^(٢)
(وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ وَفِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) .

وروى الإمام أحمد ^(٣) عن عائشة رضى الله عنها ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول :

(١) [١٨ / الكهف / ٤٩] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١٣ و ١٤] .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٧٠ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

يا عائشة ! إِيَّاكَ وَمَحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ ، فَإِنْ لَهَا مِنَ اللَّهِ طَالِبًا .

قال ابن كثير : ورواه النسائي وابن ماجه من طريق سماعيل بن مسلم بن مالهك المدني ، وثقه أحمد وابن معين وأبو حاتم وغيرهم . وقد رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة سماعيل بن مسلم هذا ، من وجه آخر . ثم قال سماعيل : فحدثت بهذا الحديث عامر بن هشام فقال لي : ويحك يا سماعيل ! لقد حدثني سليمان بن المغيرة أنه عمل ذنباً فاستصغره ، فأتاه آت في منامه ، فقال له : يا سليمان !

لَا تَحِقِّرَنَّ مِنَ الذُّنُوبِ صَغِيرًا إِنَّ الصَّغِيرَ غَسَدًا يَعُودُ كَبِيرًا
إِنَّ الصَّغِيرَ ، وَلَوْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ ، عِنْدَ الْإِلَهِ مُسَطَّرٌ تَسْطِيرًا
فَازْجُرْهُوَكَ عَنِ الْبِطَالَةِ ، لَا تَكُنْ صَعْبَ الْقِيَادِ وَشَمْرَنَ تَشْمِيرًا
إِنَّ الْمُحِبَّ إِذَا أَحَبَّ إِلَهُهُ طَارَ الْفَوَادُ وَالْهِمَّ التَّفَكِيرًا
فَاسْأَلْ هِدَايَتِكَ الْإِلَهِ ، فَتَتَّذِرْ فَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ)

[٥٥] (فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكَ مُقْتَدِرٍ)

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ » أى الذين اتقوا عقاب الله بطاعته ، وأداء فرائضه ، واجتناب نواهيه ، « فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ » أى أنهار . واكتفى باسم الجنس المفرد لرعاية الفواصل . وقرئ بسكون الهاء ، وضم النون ، وقرئ بضمهما . « فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ » قال ابن جرير^(١) : أى في مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم .

وقال الزمخشري : في مكان مرضى . قال شراحه : فالصدق مجاز مرسل في لازمه ،

(١) انظر الصفحة رقم ١١٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أو استعارة . وقيل : المراد صدق الميَّسَّر به ، وهو الله ورسوله . أو المراد أنه ناله من ناله بصدقه وتصديقه للرسول ، فالإضافة لأدنى ملابسة .

« عِنْدَ مَلِيكَ » بمعنى ملك . قال الشهاب : وليس إشباعاً ، بل هي صيغة مبالغة كالمقتدر « مُقْتَدِرٍ » قال القاشاني : أي يقدر على تصرف جميع ما في ملكه على حكم مشيئته ، وتسخيره على مقتضى إرادته لا يمتنع عليه شيء .

وقال الشهاب : في تنكير الاسمين الكريمين إشارة إلى أن ملكه وقدرته لا تدرى الأنفهام كنههما ، وأن قربهم منه بمنزلة من السعادة والكرامة ، بحيث لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، مما يحل عن البيان ، وتكمل دونه الأذهان .